المقال الافتتاحى

إعادة نظر في تحليل الخطاب الإعلامي النقدي

أ.د/ محمد سعد

أستاذ الصحافة – جامعة المنيا

ثلاث قضايا معلقة في تحليل الخطاب الإعلامي لاتزال الأطر المنهجية والنظرية كموضوع للبحث غائبة عن الدراسات الإعلامية المصرية والعربية. فالمناهج والنظريات ليست مسلمات، بل في حاجة مستمرة لإعادة النظر والتنقيح والتجديد والإبتكار. ومن بين الأدوات التي تحتاج لإعادة نظر تحليل الخطاب الإعلامي. فرغم ماشهده العقدان الأخيران من تطورات، لاتزال هناك ثلاث قضايا معلقة وقيد الدراسة هي:

النطاق الزمني في تحليل الخطاب.

الإستراتيجيات الخطابية للفاعلين الإجتماعيين.

الآثار الناتجة خارج النص وفوق النص، بمعني أن المؤسسات والأيديولوجيات هي التي تنتج الخطاب.

ومطلوب إجراء دراسات طولية للنصوص الموسعة وسياقاتها الإجتماعية، لأن تحليل الخطاب لاتأخذ في الحسبان التسلسل الزمني للنصوص وتداعياتها. وحيث إن التمثيل الإعلامي للقضايا يعتمد على البناء الخطابي للأحداث والمشكلات والمواقف من قبل الفاعلين الإجتماعيين، فإن الاستراتيجيات الخطابية قبل وبعد النصوص تحتاج للبحث والفحص. وهناك حاجة لإعادة النظر في مختلف العمليات الإجتماعية خارج النص وفوق النص، وتقديم مساهمة نظرية منهجية لدمج هذه القضايا في تحليل الخطاب، من خلال إقتراح إطار يجمع بين البعد النصي والبعد السياقي.

ويأتي تحليل الخطاب النقدي متعدد الوسائط (MCDA) كنهج ديناميكي لتوسيع نطاق تحليل الخطاب النقدي، ليشمل وسائط تواصلية متعددة مثل الصور والرسوم والفيديو والصوت والموسيقى، إستنادا لدراسات الإتصال اللغوي والبصري، ومن ثم يعزز العمق التحليلي، ويوسع النطاق التفسيري، ويربط التحليل بالتفاعل بين مختلف الوسائط.

وهذا المجال التحليلي، ليس جديدا ولا مستقلا بذاته، فقد بدأت بحوثه في علم الإجتماع والأنثروبولوجيا عام 2005، وسلط Machin في 2013 الضوء على تحليل الخطاب النقدي متعدد الوسائط فى مجلة دراسات الخطاب النقدي، مركزا على كيفية توظيف الموارد السيميائية المختلفة لتحقيق فعل تواصلي محدد، ومواكبة هيمنة الوسائط الرقمية، والتكيف مع التفاعل الفني للوسائط داخل هذه التقنيات الديناميكية.

يركز تحليل النص على بنيته، وصناعة المعنى، واستخدام الفعل. وتحليل الفاعلين الإجتماعيين.

ويشمل تحليل المواد البصرية الإشارات البصرية، والمقدمة والإطار والخلفية، ولوحات الألوان، ونظرة المشاهد، وحركة الرسوم والأشخاص.

أما تحليل المواد السمعية، فيشمل الصوت والموسيقى والنعمة والإيقاع، كما يشمل التحليل الارتباطات مثل الدلالة والتقابل والنوع، تالتحيز الأيديولوجي مثل تعزيز الوضع الراهن، وتصنيع عدو، وراوية قصص مقنعة

وباستثناء عدد محدود من أساتذة الإعلام المصريين والعرب وعدد محدود من شباب الباحثين في تحليل الخطاب الإعلامي (المدرسة المصرية) إن جاز التعبير، لا تزال غالبية البحوث بعيدة عن الخلفيات النظرية والمنهجية، والمدارس العلمية الفرنسية والبريطانية والالمانية واللاتينية باتجاهاتها المختلفة.

وأشعر بالأسى كلما قارنت بين بحوث تحليل الخطاب المصرية فى كليات وأقسام الإعلام ونظيرتها في كليات الآداب ودار العلوم. فالتكميم، والتسطيح، والتحليل المعزول عن السياق والنظرية والمنهج، والإغراق في نقل الإقتباسات والاستشهادات، هو الغالب والسائد، وكأننا نطلب من أساتذة اللغويات أن يغفروا لنا زلات الخوض في غمار مدخل نظري ومنهجي متعدد التخصصات.

هناك ثلاثة إتجاهات رئيسية لتحليل الخطاب نوجزها على النحو التالي:

1 - النموذج الإجتماعي الإدراكي لدى فإن دايك، الذي يعتمد على التحليل السياقي والبنى النصية والتأطير الإعلامي الإيجابي والسلبي، والإدراك الإجتماعي، والتمثيلات الذهنية. . وتركز إسهامات فإن دايك على خطاب منصات التواصل الإجتماعي وتشكيل الرأي العام عبر الخوارزميات.

2 - النموذج ثلاثي الأبعاد لدى فيركلاو الذي يتضمن النص، وممارسة الخطاب ، والممارسة الإجتماعية. ويعتمد فيركلاو في تحليله لخطاب مابعد الحقيقة على النقد الديالكتيكي، والانماط الخطابية، والخطابين العام والخاص.

3 - النموذج التاريخي الخطابي لدى روث فوداك، الذي يعتمد على السياق التاريخي، والإستراتيجيات الخطابية، والتضخيم والضحايا والابطال. وتركز إسهاماته على تحليل الخطاب الشعبوي في الإعلام الأمريكي والأوروبي.

ويؤخذ على النماذج الثلاثة التعميم المفرط، والتركيز على السلطة، وإغفال بعد المقاومة في الخطاب، والتحيز الأيديولوجي، وإغفال السياقات غير الغربية.

وتتعدد مدارس تحليل الخطاب من حيث أهدافها ومنهجيتها واتجاهاتها ونوجزها فيما يلي:

أولاً المدرسة الفرنسية: وتشمل اتجاهي البنيوية الإجتماعية، وتحليل خطاب مابعد البنيوية، حيث تدرس الخطاب كأداة لإنتاج المعرفة والسلطة، وتحلل العلاقة بين الخطاب والممارسة الإجتماعية، وتستخدم منهجية فلسفية وتاريخية مع التركيز على تحليل النصوص الأرشيفية والخطابات المؤسسية.ومن رواد تلك المدرسة رولان بارت وميشيل فوكووجاك دريدا.

ثانياً المدرسة البريطانية: تأثرت بمدرسة برمنجهام في التحليل الثقافي الإجتماعي، والتمثيلات الثقافية، والخطاب كجزء من الثقافة الشعبية والهوية.كما تأثرت بمدرسة تحليل الخطاب الوظيفي، حيث تدرس البنية الداخلية للنصوص والحوارات مثل تحليل المحادثة والبنية السردية وتتبنى كذلك مدرسة هاليداي في اللسانيات الوظيفية واستخدام المناهج اللغوية الوصفية مثل تحليل التماسك النصية والادوار الكلامية. ومن رواد تلك المدرسة جون سنكلير ومالكوم كولتارد.

ثالثاً المدرسة الألمانية: تأثرت بمدرسة فرانكفورت النقدية الإجتماعية، حيث تركز على نقد البنية الرأسمالية، والثقافة الجماهيرية، والهيمنة الإجتماعية، علاوة على الكشف عن الآليات الأيديولوجية والعلاقة بين اللغة والسلطة.كما برز اهتمامها بالمجال العام، والعقلانية التواصلية ،وتحليل النصوص والسياقات. ومن أبرز رواد تلك المدرسة فان دايك ومارتن فوركاد وهابرماس وزيغفر بدييغر. ونستكمل غدا الحديث عن تحليل الخطاب فى أمريكا اللاتينية وآسيا والدول العربية ومدارس البنيوية والتداولية والإثنوغرافيا التواصلية.

رابعاً مدرسة الأثنوغرافيا التواصلية: تعني بدراسة أنماط التواصل في سياقاتها الثقافية المحددة، وتحليل الكفاءة التواصلية أي معرفة كيفية التصرف في سياق معين.وتعتمد على منهج الملاحظة الميدانية الطويلة.

ومن أبرز روادها ديل هايمز.

خامساً المدرسة التداولية: تركز على دراسة الأفعال الكلامية مثل الأمر والوعد والتهديد، واستراتيجيات الخطاب وسياقه، والعلاقة بين اللغة والمقاصد التواصلية، ومن رواد تلك المدرسة أوستن وسيرل وفرايس.

سادساً المدرسة البنيوية: تركز على تحليل البنى الشكلية للنصوص، والعلاقات بين الكلمات والانماط والبنى النحوية. ومن روادها دي سوسيير ورولان بارت.

سابعاً تحليل الخطاب في البحوث الأمريكية: يعكس الخطاب التناقضات المجتمعية : الحرية مقابل التحيز، والتنوع مقابل الإحتكار، والتقدمية مقابل المحافظة، الأمر الذي يضخم الإنقسامات في عصر مابعد الحقيقة. وتبرز إسهامات هربرت شيلر حول نقد التبعية الإعلامية والثقافية، والإمبريالية الثقافية، والثقافة الجماهيرية.ويقدم نعوم تشومسكي إطارا نقديا لفهم الإعلام كأداة للسلطة وصنع الموافقة، ويتبنى اللسانيات التوليدية في تفكيك الخطاب الإعلاي الأمريكي ، وكشف التناقضات والتحيزات الأيديولوجية.

ثامناً تحليل الخطاب في أمريكا اللاتينية: يبرز تحليل الخطاب النقدي، ومدخل التحليل الثقافي الإجتماعي، لتحليل تمثيل الهويات الجندرية والعرقية والطبقية. وتركز البحوث على التبعية الإعلامية، والتلاعب بالوعي الجماهيري، والتربية النقدية، والإعلام البديل والمقاوم المعبر عن المهمشين

تاسعاً تحليل الخطاب في روسيا والصين: يسود المدخل الجيوثقافي الذي يربط الخطاب الإعلاي بالمصالح الجيوسياسية، وتتمحور الدراسات حول الحرب المعلوماتية، والرأسمالية الرقمية، والإنقسام الرقمي، والسيادة والاستقرار الإجتماعي، والهوية الثقافية.

عاشراً تحليل الخطاب في العالم العربي: يبرز التحليل السيميولوجي والدلالي والتأويلي، ويتراجع تحليل الخطاب النقدي. ومن رواد هذا المجال في مصر الدكاترة محمد شومان ومحمود خليل وهشام عطية وحلمي محسب. وفي الجزائر د .نصر الدين العياض ود .محمد النذير عبدالله ثاني، وفى سوريا د .كمال أبوديب ود .حسين جمعة .وفى المغرب د .سعيد بنكراد ود .فؤاد بوعلي، وفى فلسطين د .عزالدين المناصرة ود .أحمد يوسف.